العربية التي تؤكد على تسليم العرب على تحرير فلسطين يوما ما ، وعلى العرب في اسرائيل واجب تجاه اخوانهم العرب ، على ان هذه الدعاية العربية قلما حددت مهمات اساسية للعرب في اسرائيل . ومن جهة فالسلطات الاسرائيلية وجهت دعاية مضادة ، وفرضت احكاما عسكرية وطبقت القانون بصرامة ، وجرى تعاون — ولو جزئيا — في مضمار التطور ( كالبلديات والتعليم ومد شبكات المياه ) . ولكن اسرائيل ايضا لم تصمم وتقرر ارشاد مواطنيها العرب وجرهم الى انتماء اعمق للدولة واهدافها ( لم تجندهم في الجيش مثلا ) ، لان مطالبة السكان العرب بالولاء التام للدولة الصهيونية امر غير عملي . وهناك عامل اخر أدى الى حفظ كفتي الميزان ، في الهوية العربية ، على مستوى واحد وهو الانضباط الاجتماعي الناتج من الشعور بالمسؤولية العامة في عدم توريط الاقلية العربية بما معاد من شأنه ان يؤدي الى تعريض الاقلية العربية للخطر سواء على مستوى المنطقة او القرية او العائلة . وانطلاقا من هذا الشعور الجماعي بالذات كانت الاقلية العربية تشجع اعمال تعاون بعض افرادها مع اجهزة الاعلام الاسرائيلية ومع المخابرات ، او تشترك في توجيه الانتقادات الى الدول العربية وسياستها او الدعاية لها في الخارج . ويمكن القول بان هذا الحس بالمسؤولية الجماعية الذي فرضته الاقلية العربية على نفسها من ارادتها كان يحد من مناورة الفرد العربي في اسرائيل . اذ يجعل اقصى درجات التطرف تقف عند : مع العرب دون ان يكون ضد اسرائيل . ومع اسرائيل دون ان يكون ضد العرب . بمعنى اخر : هذه الرقابة الاجتماعية الذاتية تمنع التطبيق العملي للمثل القومية وبنفس الوقت ايضا تمنع الولاء العقائدي الكامل للوضع القائم . ولقد اعطيت هذه الصيغة الفريدة للتقسيم الاثنائي ولانماط السلوك المنبثقة عنه ، تفسيرا خاطئا من المجتمع اليهودي . وجرت محاولات لوصف مسلكية العرب امام الحضور اليهودي بانها قناع زائف من الرياء ، بينما المواقف الوطنية التي تعبر عن نفسها في المجالس غير الرسمية ، وبعيدا عن الحضور اليهودي ، هي التي تدل على الولاء الحقيقي . كما ان هنالك وجهة نظر اخرى تصف تلك الحالات ، التي يميل العرب فيها الى التعبير عن آراء وطنية متطرفة ( في جلسات غير رسمية في بيوت خاصة ) وكأنها حالات احتفالية تهدف الى امتصاص التوتر ، وتؤمن استمرار الايمان بالمثل الوطنية ، بينما الايمان الحقيقي هو ذلك الذي يعبر عن نفسه في المسلك العملي في الحياة اليومية .

ومحاولة تفسير تحديد أحد قطبي الولاء العربي على انه اصلي والثاني بانه مزيف ( او فقط مجرد شعارات ) هو امر اعتباطي . ان هوية العربي في اسرائيل مركبة من عدة ميول مسبقة ، والوضع الاجتماعي القائم في لحظة معينة هو الذي يقرر اي العوامل التي تأتي في المقدمة في تلك اللحظة . فالعربي مثلا في وظيفة رسمية في مؤسسة اسرائيلية عامة يسلك مخلصا ويعبر عن آراء مؤسسته امام الجمهور ، بينما في اوضاع اخرى ( مع اصدقائه وبشكل غير رسمي ) يعبر عن آراء تختلف تماما . وهنالك اسلوب اخر ينتهجه العربي في اسرائيل لفصل قطبي النفوذ الذي يدور حولهما انتماؤه . ويظهر في اللامبالاة السياسية : فالعنصر المستفتى « لا يظهر اهتماما » بالامور السياسية ، ولا يتخذ موقفا محددا منها حيثما يؤخذ هذا الموقف بصفة رسمية وبعين الاعتبار : «اترك هذا للسياسيين». او « على السياسي ان يتكلم والرجل العادي عليه ان يبقى صامتا ». هذه النماذج تتكرر كثيرا . ومن الممتع ان نذكر ان اغلب هذه النماذج التي تتظاهر بالبله تكون عادة ملمة بالمواضيع السياسية وحتى بأدق تفاصيلها وتطوراتها . ونريد القول ان اتخاذهم هذا الموقف ليس ناجما عن جهل بالموضوع .

وكما حاولنا ان نظهر سابقا ان قضية الانتماء العربي في اسرائيل هي النموذج المحكم للتوازن بين العناصر المتضاربة ، التوازن القائم تماما في غياب قرار لا اشتباه في معناه . ان مقدرة عدم التقرير ، او الالتزام بشعار مع اسرائيل ولكن ليس ضد العرب ، او مع العرب ولكن ليس ضد اسرائيل ، تعتمد على مواجهة تامة بين اسرائيل والعرب ، اذ ان مواجهة كهذه من شأنها ان تقلب الممر الضيق بين المعسكرين الى خيط دقيق ، بحيث ان « اكروبات » متمرس كالعربي في اسرائيل يستحيل عليه حينذاك النجاح في السير عليه .

يظهر للباحثين ان هذا هو السبب الرئيسي الذي يفسر حقيقة معارضة غالبية العرب في اسرائيل حتى عام ١٩٦٧ ، الحل العسكري ، او تحفظوا منه بشدة وفضلوا الحل السياسي . لقد ازداد شعور عدم الارتياح بين العرب في اسرائيل قبيل حرب